Epistemological Readings in the Muslim Medical Research (Epidemiology)

Approaches Lisan Eddin Ibn Elkhatib's Moqniat Elsail an Elmaradh Elhail as a Case Study.

Ali Zouber

Abstract

Epistemology has always been dealing with sciences' principles, theories, and outcomes to determine their value and subjective outcome. The Muslim scientists had a role in setting significant scientific approaches in different scientific fields including medical sciences not only in the Middle East but also in the Islamic West. Among the medical epidemiology books that combined religion sciences, philosophy, and experimental approaches in an out standing harmony, is the book of Granada's Nasride state minister Lisan Eddin Ibn Elkhatib, entitled 'Moqniat Elsail An Elmaradh Elhail', which was written during the year of the epidemic of 748 Hijrith at plagued the Islamic Maghreb and Andalucia.

Key words :Epistemology– epidemiology–scientific research–philosophy–Logic–scientific approach–Lisan Eddin Ibn Elkhatib– The Islamic West –Kingdom of Granada.

قراءة إبستيمية في مناهج البحوث الطبّية (الأوبئة والطب الوقائي) عند المسلمين
كتاب لسان الدّين ابن الخطيب: "مقنعة السائل عن المرض الهائل" أنموذجاً

بعلي زوبير

جامعة باتنة1، الجزائر

الملخص

لطالما كانت الإبستمولوجيا تبحث في مبادئ العلوم وفروضها ونتائجها لتحديد قيمتها وحصيلتها الموضوعية، وعلماء المسلمين كان لهم دور في إرساء مناهج علمية لا تخل من أهمية في شتى الميادين العلمية ومن بينها العلوم الطبّية ليس في بلاد المشرق فحسب بل كان لبلاد الغرب الإسلامي نصيبها الوافر، ولعلّ من بين أهمّ الكتب الطبّية التي بيّنت مناهج البحث في الطب الوبائي وجمعت بين علوم الدّين ونصوصه والحكمة (الفلسفة) والمنهج التجريبي في توفيق رائع كتاب وزير الدولة النصرية في مملكة غرناطة لسان الدّين ابن الخطيب: "مقنعة السائل عن المرض الهائل" الذي ألّفه حين اجتاح الوباء بلاد المغرب والأندلس سنة **749**هـ.

الكلمات المفتاحية: الإبستمولوجيا، الأوبئة، البحث العلمي، الفلسفة، المنطق، المنهج التجريبي، لسان الدّين بن الخطيب، بلاد الغرب الإسلامي، مملكة غرناطة.

مقدمة

لا يكاد يشكّ أحد من المنصفين المهتمين بتاريخ الحضارة العربية الإسلامية في دور المسلمين ومساهمتهم الكبيرة في تطوّر العلوم بصفة عامّة والعلوم الطبيّة بصفة خاصة، وليس أدلّ على ذلك من التراث الطبّي الزاخر المخطوط الذي وصل إلينا، بصرف النظر عن المخطوطات الطبّية المخطوطة الذي أتت عليه عاديات الزمن فضاعت أو هي في حكم الضياع.

وإذا كان المشرق قد ظهر فيه الأستاذ الحكيم ابن سينا صاحب القانون في الطّب، وهو أشهر من نار على علم، فإنّ بلاد الغرب الإسلامي كان بها هي الأخرى نصيبها الوافر من الدّراسات والبحوث والمؤلفات الطبّية.

ففي قرطبة ظهر الطبيب أبو داود بن حسّان الأندلسي المعروف بـ: ابن جلجل(ت348هـ)صاحب الكتاب المعروف: "طبقات الأطباء والحكماء"، وأبو جعفر الغافقي صاحب كتاب: "الأدوية المفردة"، وكذا الإمام الشهير الزهراوي(ت404هـ)، صاحب كتاب "التصريف لمن عجز عن التأليف، "والعلامة الطبيب الفيلسوف القاضي أبو الوليد ابن رشد(ت595هـ) الذي جمع بين الدّين والحكمة(الفلسفة والمنطق) والطب وهو صاحب كتاب: "الكلّيات في الطّب"، كما له كتب أخرى وشروح على كتب ابن سينا في الطّب والفلسفة، مما لا يسع المقام لذكرها.

وفي غرناطة اشتهر بالطّب كثيرون، لعلّ أشهرهم طبيب وفيلسوف عصره الإمام أبو زكريا بن هذيل، وتلميذه لسان الدّين بن الخطيب الملقب بذي الوزارتين، وزير دولة بني الأحمر في مملكة غرناطة، الذي أحاط بأغلب علوم عصره من فقه ولغة وفلسفة ومنطق وطب.

ويعتبر كتابه: "**مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل**" من أهم الكتب التي أُلّفت فيما يسمّى في الفترة المعاصرة بالطّب الوقائي، حيث توصّل فيه إلى القول بوجود العدوى وانتقال المرض عبر ما يسمّى العدوى بالملامسة " contamination par contact " .

ولأنّ الإبستمولوجيا تبحث في مبادئ العلوم وفروضها ونتائجها لتحديد قيمتها

وحصيلتها الموضوعية، فإنّنا نحاول جاهدين إماطة اللّثام عن بعض الأسس الإبستمولوجية في بحوث المسلمين الطبّية مقتصرين على كتاب لسان الدّين بن الخطيب كأنموذج، لنعرف المبادئ والفروض التي اعتمدها هذا الأخير في بحوثه وقيمتها ومدى أهميّة النتائج التي وصل إليها وصحّتِها.

1 - ابن الخطيب طبيباً وفيلسوفاً

هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السّلماني اللوشي، يكنى أبا عبد الله المعروف بابن الخطيب، أصله من مدينة لوشة، كانوا يعرفون ببني الوزير في قرطبة ولمّا رحلوا عنها بعد وقعة الرّبض الشهيرة في أحداث يطول ذكرها عرفوا في مدينة لوشة ببني الخطيب[1].

كان ابن الخطيب ابن عائلة عرفت بالعلم والتقلّب في المناصب كالقضاء والوزارة، وكان هو أحد أفراد هذه العائلة الذين تولوا الوزارة فقد كان وزيراً في عهد دولة بني الأحمر(الدولة النصرية)؛ حيث كان يلقب بذي الوزارتين.

قرأ القرآن على الشيخ الصالح أبي عبد الله العوّاد، والقرآن وعلوم العربية على أبي الحسن القيجاطي، وأبي القاسم بن جزي، كما لازم ابن الفخار البيري إمام اللغة في عصره فقرأ عليه الفقه واللغة والتفسير، وروى عن أبي البركات البلفيقي، والقاضي ابن سلمون الكناني، كما روى عن علماء تلمسان كالإمام أبي عبد الله المقري، وأبي عبد الله بن مرزوق، وعددهم كثير لا يسع المقام ذكرهم[2].

قرأ ابن الخطيب الطّب والمنطق والفلسفة على طبيب وفيلسوف عصره الإمام أبي زكريا بن هذيل، حيث يذكر ابن الخطيب أنّه كان ملازما له، دون أن يذكر المدّة التي قضاها في طلب الطبّ والفلسفة3. لكنّه يذكر أنّ ابن هذيل لمّا مَرض مَرَض الوفاة لزم منزل ابن الخطيب وحضر ابن الخطيب وفاته التي كانت سنة753هـ.[4] ممّا يدلّنا على أنّ ابن الخطيب ظلّ ملازماً لابن هذيل فترة ليست بالقصيرة.

ويذكر ابن الخطيب أنّ أستاذه ابن هذيل كان مبرزاً في علوم الجبر والهندسة والمنطق، أما

مؤلفات أستاذه في الطبّ؛ فهي كتاب: "الاختيار والاعتبار في الطب"، وكتاب "التّذكرة في الطّب"، وقد مارس الطّب وكان طبيب أحد سلاطين الدولة النصرية[5].

توفي لسان الدّين بن الخطيب مقتولاً سنة 776هـ[6]، في أحداث طويلة لا يسعنا المقام لذكرها، تاركاً لنا تراثاً أدبياً وفلسفياً وطبّياً ثرياً، هذه الخصوصية تجعل من مؤلفات ابن الخطيب ذات أهمية كبرى للمهتمين بمجال نظرية المعرفة أو فلسفة العلوم أو الإبستمولوجيا لرجل حوى أغلب علوم عصره وأحاط بأصولها ومناهجها العلمية.

2 - مؤلفات ابن الخطيب في الطّب والفلسفة

كان ابن الخطيب رجلاً موسوعياً من أكثر الكتّاب تأليفاً؛ فقد كتب في الأدب والتاريخ والفقه والتصوّف والفلسفة والطّب، ومن أشهر كتبه: "الإحاطة في أخبار غرناطة"، "نفاضة الجراب في علالة الاغتراب"، "الكتيبة؛ الكامنة في أعيان المئة الثامنة".

وله كتب في البيطرة وعلوم الزراعة يمكن الاستعانة بها في معرفة المنهج التجريبي وتطوّره لدى علماء العرب والمسلمين منها كتاب: "**البيزرة**"، وكتاب: "**البيطرة**"[7].

أما كتبه في الطّب؛ فعدّة كتب، نذكر منها:

"**الوصول لحفظ الصّحة في الفصول**"، وله أرجوزة في الأغذية سمّاها: "**المعتمدة في الأغذية المفردة**" وله أرجوزة في الطّب سمّاها: "**المعلومة**" في العلاج من الرأس إلى القدم أكمل بها رجز الطبيب الفيلسوف ابن سينا في الطب، ورجز "**في عمل الترياق الفاروقي**"، كما ألّف كتاب "**اليوسفيّ في الطّب**"، وله "**رسالة في تكوين الجنين**"، وله رسالة في الطاعون(الوباء) الذي ضرب غرناطة سنة 749هـ، سمّاها: "**مقنعة السائل عن المرض الهائل**"[8]، وهي موضوع بحثنا.

3 - قراءة إبستيمية في مناهج البحوث الطبية عند المسلمين من خلال النص

إلى عهد ابن الخطيب كان علم الطّب مرتبطاً بالفلسفة وصناعة المنطق، ويظهر

ذلك جليّاً أولاً من خلال ذكر ابن الخطيب لمشيخته وأساتذته حيث جمع بين علمي الطب والتعاليم(المنطق) عند ذكر أخذه عن شيخه ابن هذيل، وكذا من خلال مقالته في الوباء ومنهجه في عرض أطروحته في العدوى بالملامسة والمباشرة للمريض المصاب بالوباء التي عرضها وفقاً لعلم المنطق.

ويظهر تأثر ابن الخطيب في كتابه الطبّي بالمنطق الصوري في بداية تعريفه لهذا المرض؛ حيث قال: "لمّا كان الحكم على الشيء فرع عن تصوّره، وجب أن نبيّن حقيقة هذا المرض"[9]. فالتصور هو إدراك صورة الشيء من غير الحكم عليها بنفي أو إثبات على وجه الجزم أو الظن، أما إذا كان مع التصوّر حكم فهو ما يسمى بالتصديق.

فعلى أساس المنطق الصوري شرع ابن الخطيب يقسّم كتابه الذي ينبني على التصوّرات والتصديقات؛ فهو يعتمد في تعريف الوباء على مبحث المقولات من المنطق الأرسطي وهي الجوهر والإضافة والوضع؛ حيث يقول في تعريف الوباء: "هو مرض حادّ، حارّ السبب، سُمّي المادّة، يتّصل بالروح بدءا بوساطة الهواء، ويسري في العروق، فيُفسد الدّم، ويُحيل رطوبات إلى السمّية، وتتبعه الحُمّى ونفث الدّم، أو يظهر عنه خُراجٌ من جنس الطواعين"[10].

وقد راعى ابن الخطيب في التعريف الكليات الخمس التي يحتاج إليها في التعريف لكي تقع محمولات في القضايا يستعين بها في البرهان للوصول إلى معرفة المجهول. فقد ذكر الجنس: وهو المرض، ثم ذكر الفصل وهو أنه حادّ وحارّ السبب سمّي المادّة، ثمّ ذكر الخاصّة وهي العرض، فذكر بأنّه يتّصل بالروح بدءاً بوساطة الهواء، ويسري في العروق، فيُفسد الدّم، ويُحيل رطوبات إلى السمّية، وتتبعه الحُمّى ونفث الدّم، أو يظهر عنه خُراجٌ من جنس الطواعين.

ويظهر أثر المنطق واضحاً في التعريف خاصة فيما يتعلق بالحركة، وهي من المصادرات؛ التي ذكرها المناطقة ومن بينهم ابن سينا التي يجب تقدّمها على العلم الطبيعي حيث ذكر الحركة من كم إلى كم ومن كيف إلى كيف والتي تسمى استحالة[11]، وهي ما عبّر عنه ابن الخطيب بقوله: ويُحيل رطوباته إلى السُمّية.

أمّا فيما يتعلّق بأسباب المرض ودعوى العدوى والعلاج وهي التصديقات فيستعمل القياس الذي يُتوصل به إلى التصديق وقد صرّح ابن الخطيب بذلك في تبيانه لمنهجه بقوله: "فإن قيل: كيف نسلّم دعوى العدوى وقد ورد الشرع بنفي ذلك؟قلنا: وقد ثبت وجود العدوى **بالتجربة والاستقراء والحسّ والمشاهدة والأخبار المتوترة،وهذه مواد البرهان**"[12].

والبرهان كما يعرّفه المناطقة :هو قياس مؤلف من مقدّمات يقينية لانتاج اليقينيات، وهذه اليقينيات ستة عند المناطقة: الأوليات، والمشاهدات، والمجَرَّبَات، والحد سيات، والمتواترات، وقضايا قياساتها معها[13].

وقد اعتمد ابن الخطيب على المفهوم في وصف العلاج، فذكر أنّه إذا كان حمى كيف يكون العلاج، وإذا كان خُراجاً كيف يكون العلاج، وهي نتائج لمقدّمات وردت في المفهوم.

ثم استعان ابن الخطيب بعلم التشريح، فجعل علم التشريح وأعراض المرض وصفاته كمقدّمات بنى على أساسها في كيفية عمل المرض في جسم الإنسان، والأعضاء التي تتأثر بالمرض وكيف يؤدّي المرض إلى الوفا؛ حيث يقول: "هذا مقتضى الصناعة، وما يعطيه النظر بعد مراعاة مقدّماتها من تشريح وغيره"[14].

وهنا نجد أنّ ابن الخطيب لم يقتصر على معرفة الوباء أهو معدٍ أم لا؟بل تجاوزه إلى معرفة كيفية عمل الوباء في الجسم وكيفية انتقاله، وهو ما يسمّيه الفلاسفة المعرفة القَضَوية وغير القَضَوية، أو التي يسمّيها الفيلسوف الإنجليزي رايل في "أحكام العقل" 1949م (معرفة أن) و(معرفة كيف).

الاستقراء ومبدأ السببية والاطّراد

لم يعرف الغرناطيون طبيعة الوباء الذي ضرب مملكة غرناطة وأتى على كثير من أهلها وسكّانها، وما أسباب انتشاره؟ أله سبب عقلي يمكن معرفته ومن ثم معالجته والتحرّز منه، أم هو مجهول السبب؟

وقد كان موقف ابن الخطيب أنّ الوباء الذي ضرب مملكة غرناطة هو مرض مُعْدٍ

سببه فساد الهواء، وأنّ انتشار المرض إنّما سببه العدوى، فهو من الأمراض التي تنتقل من شخص إلى آخر عن طريق الهواء أو الاتّصال بالمريض وقد استدلّ على وجود العدوى بما سمّاه موادّ البرهان، وقد اعتمد ابن الخطيب على مبدأ السببية في تفسير هذه الظاهرة فذكر سببين للوباء، سبب بعيد وهو الأمور الفلكية من القرانات التي تؤثر في العالم-بحسبما يزعمه أصحاب صناعة النجوم-ويأخذه الطبيب مُسلّماً عنهم، وسبب قريب وهو فساد الهواء الخاص بمحلّ ظهوره ابتداء أو انتقالاً[15].

ويظهر مبدأ السببية واضحاً ابتداء من تعريف ابن الخطيب للوباء؛ حيث يذهب إلى إثبات الخصائص الذاتية لهذا المرض كسمّية المادة، ثمّ يذكر فعله الذي من بينه فساد الدّم. وهو بهذا يذهب مذهب فلاسفة الإسلام كابن سينا والفارابي وابن رشد في السببية؛ حيث يرى أنّ للأشياء طبيعة وأفعالاً تصدر عنها هي التي تعطيها تلك الطبيعة. يقول ابن رشد: "من المعروف بنفسه أنّ للأشياء ذوات وصفات هي التي اقتضت الأفعال الخاصّة بكلّ موجود، وهي التي من قبلها اختلفت ذوات الأشياء وأسماؤها وحدودها. فلو لم يكن لموجود فعل يخصّه، لم يكن له طبيعة تخصّه، ولو لم يكن له طبيعة تخصّه، لما كان له اسم يخصّه ولا حدّ، وكانت الأشياء كلّها شيئاً واحداً"[16].

غير أنّ ابن الخطيب، مثله مثل ابن رشد وفلاسفة الإسلام، لا يقول بفاعلية الأسباب الطبيعية بمعزل عن إرادة الله، سبحانه وتعالى، فهو كثيراً ما يقرن فعل هذه المواد أو الأعضاء بقوله: بإذن الله، بقدرة الله[17].

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو أكان ابن الخطيب في كتابه يتبع الاستقراء التقليدي الذي يعتمد مبدأ العلية فقط؟أم كان في منهجه ما يشبه المنهج العلمي المعاصر الذي يفصل في منهجه بين ما هو علّي وغير علّي؟

اتّبع ابن الخطيب مبدأ السببية المتّبع في تحقيق الفروض للبرهنة على صحة نظريته في أسباب العدوى، وهي ما يسمّيها علماء المنطق (علّة لِمَ)، أمّا فيما يتعلّق بوجود العدوى أو عدم وجودها؛ فهي مسألة لا يُبحث فيها عن علّة وجود الظاهرة بل عن علّة التصديق بالوجود، وهي ما يسمّيها المناطقة بـ (برهان إنْ)[18].

ويمكن القول إنّ ابن الخطيب اعتمد منهـج ما يسمّيه جــون ستيوارت مل الاتفاق(The Method of Agreement)حيث ذكر أنّ التجربة والواقع أكّدا أنّ سبب المرض هو فساد الهواء الخاص بمحلّ ظهوره ابتداء أو انتقالاً، وأنّ سبب انتشار المرض هو العدوى التي تحدث عند المباشرة والملامسة للمريض. يقول: "وغير خفيّ عمن نظر في هذا الأمر أو أدركه هلاكُ من يُباشر المريض بهذا المرض غالباً، وسلامة من لا يباشره كذلك، ووقوع المرض في الدّار والمحلّة لثوبٍ أو آنيةٍ، حتى إنّ القُرط أتلف من عُلِّق بأذنه وأباد البيتَ بِأسره، ووقوعه في المدينة في الدّار الواحدة، ثمّ اشتعاله منها في أفذاذ المباشرين، ثمّ في جيرانهم وأقاربهم وزُوّارهم خاصّة حتّى يتّسع الخرق "[19].

وطريقة الاتفاق هي الطريقة التي يصفها جون ستيوارت مل بقوله: "إذا كان هناك ظرف واحد مشترك اتفقت فيه حالتان أو أكثر، للظاهرة قيد البحث، فإنّ هذا الظرف الوحيد الذي اتفقت فيه الحالات يُعدّ علة الظاهرة أو سببها "[20].

أمّا فيما يتعلّق بوجود العدوى أو عدم وجودها، وهي مسألة لا يُبحث فيها عن علّة وجود الظاهرة بل عن علّة التصديق بالوجود، وهي ما يسمّيها المناطقة بـ(برهان إنْ)؛ فقد استند ابن الخطيب إلى المشاهدة الحسّية وتتبّع تاريخ ظهور الوباء وكيفية انتشاره، فاستدلّ بالمسجونين في سجن إشبيلية، الذين نجوا جميعاً على الرغم من أنّ الوباء أتى على كثير من أهل المدينة بسبب العدوى.

يقول: "ولا أعجبَ لهذا العهد من سجن الأسرى من المسلمين-أنقذهم الله-بدار صنعة إشبيلية وهم ألوف، لم يُصبهم الطاعون، وقد كان يستأصل المدينة "[21].

وعلى الرغم من أنّ مبدأ السببية يتقاطع مع فكرة الوجود في الفكر الإسلامي فقد نأى ابن الخطيب بنفسه عن مناقشة أصل الفكرة وأساسها التي يرى أنّها ليست من مواضيع علم الطّب؛ حيث يقول: "والقول بالعدوى أو بعدمها شرعاً، ليس من وظائف هذا الفن، إنّما جرى مجرى الجمل المعترضة والمُثل وإنّما له تحقيق في محلّه "[22]. وهنا نرى ابن الخطيب يفصل بين الموقف الطبيعي العملي الذي تقتضيه مهنة الطّب، والموقف الفلسفي الذي يبحث في الوجود.

وهذا الأمر في الحقيقة هو الذي دفع بعلم الطّب إلى المضيّ قُدُماً عندما ابتعد عن مناقشة مثل هذه المسائل التي ليست من دائرة اختصاصه. هذا الموقف هو الموقف الطبيعي لعلم الطّب ولا نقصد بالموقف الطبيعي الموقف الساذج غير العلمي وإنّما الموقف الذي يؤدّي الغاية من ذلك العلم أي مجاله العملي الحيوي.

ولأنّ التجربة في انتقال الأوبئة لم تكن لتُتاح مخبرياً، فقد اعتمد ابن الخطيب على الاستقراء المبني على العقل والملاحظة الخارجية(الحس والمشاهدة)؛ بحكم أنّه أحد الذين شهدوا هذا الوباء، إضافة إلى دليل الحسّ فقد استأنس بدليل آخر، وهو تواتر الخبر الذي أكّد وقوع العدوى وهو دليل مرجعه إلى الحسّ والمشاهدة أيضاً، كما أنّه تتبّع تاريخ ظهور المرض وما كان يتبع ذلك من انتشار للمرض وشدّته في مكان دون آخر وإصابة البعض دون البعض الآخر؛ وهو ما أوصل ابن الخطيب إلى ما وصل إليه فيما يتعلق بنظريته في العدوى.

ولكن، ومن وجهة نظر نقدية هل يمكن القول بأنّ ابن الخطيب في الحقيقة استعمل ما سمّاه فرنسيس بيكون في نقده للمنطق الأرسطي الاستقراء بالإحصاء البسيط(Induction by simple énumération)؟هذا النوع من الاستقراء الذي يعرّفه بيكون بأنّه انتقال من مقدّمات تتناول عدداً محدوداً من الأمثلة الجزئية الدالّة على أفراد إلى تعميم يضمّ تلك الأمثلة وغيرها مما يندرج تحت نوع واحد، وصورته الرمزية هي: (كلّ أ المُلاحَظة هي ب).·. (كلّ أ هي ب)[23].

إنّ محاولة ابن الخطيب تقصّي جميع المرّات التي ضرب فيها هذا الوباء بلاد الغرب الإسلامي هو محاولة الاقتراب من الاستقراء التامّ وهذا ليس دليلاً على اليقين المطلق؛ إذ قد توجد حالات سالبة، وهو ما دفع ابن الخطيب إلى محاولة تعليل جميع الحالات التي قد تبدو في الظاهر فقط سالبة. كما أنّ ابن الخطيب قام بملاحظات إمكانية العدوى في نوع واحد من أنواع الوباء (الرئوي)، ثمّ عمّم الحكم بوجود العدوى في هذا النوع من الوباء.

ومن الحالات التي تبدو سالبة وأجاب عنها ابن الخطيب هي كون الوباء في الأماكن

التي أصابها أخف من الأماكن التي لم يُصبها من قبل والتي يضرب فيها بشدّة، وكذا كون البعض يموت منه دون البعض الآخر، وانتشاره في الأماكن التي ينتشر فيها الفقر وشظف العيش، وهي كلّها حالات تبدو للبعض سالبة لكنّ ابن الخطيب أجاب عنها وأنّها لا تنفي وجود العدوى في المرض.

يقول: "إن قيل: لأي شيء يكرّر وقوعه في أهل الشظف؟قلنا لأمور منها: إمكان المباشرة لمظانّه من المرضى والجنائز، والأثواب والآلات، ومنها ضيق المساكن والتراكم وسوء التّدبير وعدم التحفّظ، وقلّة التيقّظ لفشوّ الجهل، وعدم العلم بهذه الأمور في طبقات اللفيف" (24).

لم يقل ابن الخطيب بأنّ الاستقراء ومبدأ الاطّراد يقيني يقيناً مطلقاً فكلمة «إمكان" في عبارته تدلّ على أنّ الاستقراء ومبدأ الاطّراد ليس يقينياً يقيناً مطلقاً؛ ولكنّ تكرّر الظاهرة لنفس السبب، يزيد من احتمال وقوعها، وهو ما ذهب إليه-أي الاحتمال- في العصر الحديث برتراند رسل، وهو قوله بالاستقراء بالتنبؤات. يقول رسل: "إنّ أقصى ما نأمله هو أنّه كلما غلب اقتران شيئين معاً، زاد احتمال وجودهما في وقت آخر" (25).

الحدس ودوره في تطوّر العلوم الطّبية

وقد ورد في كتاب ابن الخطيب أنّ الحدس كان له دوره في معرفة الكثير من الظواهر واكتشافها، فهو يتحدّث عما يسمّيه بالاستعداد وعدم الاستعداد؛ أي مدى قابلية الجسم أو عدم قابليته للمرض، الذي وصل إليه الأطباء عن طريق الحدس، والاستعداد هو ما يسمى اليوم بالجهاز المناعي للإنسان، فابن الخطيب يذكر أنّ الأطباء وصلوا عن طريق الحدس إلى أنّ الجسم الذي عانى من الوباء من قبل يكون أكثر استعداداً لمجابهة المرض من غيره الذي لم يصبه المرض من قبل، هذا الاستعداد الذي يكون إمّا عن طريق الجهاز المناعي لوحده أو يحصل عن طريق العلاج، وهي فكرة أقرب ما تكون إلى مفهوم اللقاح بالمفهوم الطبّي المعاصر.

يقول ابن الخطيب: "...وقد يكون هذا البعد خلقةً للمزاج، أو يحصل

بالعلاج، ولذلك ما حرص الأطّباء عند تعرّفهم بالحدس طبيعة هذا المرض، على الميل بالتدبير إلى طرفٍ من مُضادته يخرج عن سبيل الاستعداد " [26].

ويؤيّد ذلك ما ذكره أيضاً في نهاية الكتاب من أنّ المناطق الوبيئة-أي التي سبق أن أصابها الوباء- يكون تأثير الوباء أخف من تلك التي لم يصبها من قبل بقوله: "إن قيل: ما باله في المواضع الوبيئة أخف، قلنا: إن صدق الزعم فلِلْأنسةِ من النفوس بالأهوية الخبيثة، وتعوّدها المُصابرة له، والتعاهد بهِ، كالذي يُحكى عن بعض الجواري اللائي يُغذيْن بالسمّ بتدريج، ويُحتالُ بهنّ على المُلوك " [27].

ولكنّ ابن الخطيب إذ يشيد بالحدس كسبيل مهم من سبل المعرفة، أوصل إلى معرفة الجهاز المناعي لدى الإنسان فإنه يعيب على الأطبّاء أنّهم وقفوا عند تفسير الظاهرة فقط دون أن يبحثوا عن الطريق الثاني الذي يعالج المريض من طريق ثانٍ وهو الدواء. يقول: "ولذلك ما حرص الأطبّاء عند تعرّفهم بالحدس طبيعة هذا المرض، على الميل والتدبير إلى طرف من مُضادّته يخرج عن سبيل الاستعداد " [28].

بين الموقف الطبيعي والموقف العلمي

ولكن هل يمكن القول إنّ موقف ابن الخطيب من الوباء لم يكن إلا موقفاً طبيعياً وليس علمياً لاعتماده على المنطق الصوري الذي يعتمد على فكرة الجوهر التي تعتمد على أنّ طبيعة الأشياء تفهم من خلال الموقف الطبيعي دون البحث عن أية صورة أخرى لها مخالفة في الحياة اليومية.

هذا الموقف الطبيعي الذي يعتمد على الملاحظة والتجارب السابقة دون تفسير علمي للظاهرة، والذي يعتبر ضروريا من الناحية العملية في الحياة العامة كما يعبّر عن ذلك لوك بقوله: "إنّ حواسنا تمكّننا من معرفة الأشياء وتمييزها وفحصها بحيث يتسنى لنا تطبيقها في استعمالاتنا، على أنحاء شتى، لمواجهة مقتضيات هذه الحياة. . . ولو تغيّرت حواسنا وأصبحت أسرع وأحدّ لتغيّرت مظاهر الأشياء ونظمها الخارجية في نظرنا تغيّراً تامّاً، ولغدت كما أظنّ غير متمشّية مع وجودنا أو رفاهنا على الأقل في هذا العالم الذي

نعيش فيه " [29] .

الحقيقة أنّ ما وصل إليه ابن الخطيب من نظرية العدوى لا يعتبر موقفاً طبيعياً (المعرفة العامية الساذجة) بل كان نتيجة إعماله لما كان سبقه إليه الأطباء من قبل في علم التشريح ووظائف الأعضاء التي استخدمها كمقدّمات مع ملاحاظاته المباشرة وغير المباشرة التي تعتمد على تواتر الأخبار حول الوباء؛ بحيث يستحيل تواطؤها على الكذب هو ما أوصل ابن الخطيب إلى ما وصل إليه في مقالته التي تقول بوجود العدوى في حين أنّ الكثيرين في زمانه كانوا لايقولون بذلك إما جهلاً بالظاهرة وإما لتوهم تعارضها مع بعض الأحاديث والنصوص الشرعية .

بين المنهج التجريبي والدّين (بين العقل والنقل)

لم يضرب الطاعون مملكة غرناطة مرّة واحدة على عهد ابن الخطيب بل إنّ الوباء اجتاحها أكثر من مرّة، وفي كلّ مرّة اختلف علماء مملكة غرناطة وأطباؤها فيه، مع العلم أنّ أغلب الأطباء كانوا فقهاء ومن بينهم لسان الدّين بن الخطيب، ذلك أنّ الدّين كان عليه مدار الحياة في تلك الفترة وهو من العلوم التي لا يسع الجاهل معرفتها، أمّا الطّب فكانت لا تحسنه إلا فئة الخاصّة .

ولأنّ موضوع العدوى يرتبط بمفهوم السببية في الفكر الإسلامي فقد انصرف نظر الفقهاء إلى البحث عما يزيل شُبه التعارض بين النصوص الشرعية أولاً التي يوحي ظاهر بعضها بوجود العدوى والبعض الآخر بعدمها من جهة وبين النصوص الشرعية وبين الطب المبني على التجربة والاستقراء من جهة أخرى .

فقد سئل الأستاذ ابن لب عن هذا الوباء وفرار النّاس بعضهم من بعض فيه حيث وقع النّاس في إشكال ووهم التعارض بين النصوص نفسها وبينها وبين الطب المبني على التجربة والاستقراء، وذكر ابن لب اختلاف العلماء في الأحاديث " لا عدوى ولا طيرة " و " لا يحلّ الممرض محلّ المُصح حيث شاء " و " فِرّ من المجذوم فِرارك من الأسد " ، وذكر من بين الأقوال أنّ نفي العدوى نفي اعتقاد كون بعض الأمراض يفعل في غير محلّه

بطبعه وإنّما بإرادة الله[30].

وتكمن أهمية رسالة ابن الخطيب أنّها حاولت إزالة شُبَه التعارض بين النصوص الدينية(الأحاديث) المتعلقة بنازلة الطاعون وبين الطب الذي يعتمد المنهج التجريبي؛ حيث ذكر في رسالته وجود العدوى على الرغم من معارضة ذلك لظاهر الحديث " لا عدوى ولا طيرة " ، فذكر بأن انتقال المرض وجد بالتجربة والاستقراء عن طريق مجاورة المريض أو ثوبه أو استعمال آنيته بل إنّ هناك من هلك لاستعمال قرط مصاب عُـلِّق بأذنه، كما ذكر ابن الخطيب أنّ العارف سيدي أبا مدين بمدينة سلا كان ممن يقولون بالعدوى وقد تزوّد وأغلق باب بيته زمن الوباء، ومنهم أسرى دار الصنعة بإشبيلية الذين سلموا من الوباء الذي أتى على المدينة، وذكر ابن الخطيب أن من الأصول التي لا تُجهل أن الدليل السمعي إذا عارضه الحس والمشاهدة لزم تأويله[31].

وبعد عهد ابن الخطيب نجد الإمام المواق يستفتي الإمام الرصاع التونسي تلميذ ابن عرفة حول الطاعون هل الذي يعتمد في البحث عن سببه العقلي وهو تغيّر الهواء وفساده كما يذكر الأطباء وما ينبني على ذلك البحث من العمل المأذون فيه شرعا أو هو مجهول السبب، وما تخريج الحديث أنّه من وخز الجن وهل يجب اعتقاد ما دلّ عليه من ذلك كما عند كثير من النّاس وإن كان من أخبار الآحاد؟ ثم يسأله عن رسائل كل من ابن صفوان وابن خاتمة في رسالته " تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد " ، وابن الخطيب في رسالته " مقنعة السائل عن المرض الهائل " ، وهو كتاب ألفه ابن الخطيب عندما اجتاح الوباء بلاد المغرب سنة749هـ[32].

ويبدو أن تأثير الوباء على الحياة الاجتماعية كان كبيراً؛ ففي بعض النوازل سئل ابن لب عن حكم بعض من فرّ من الوباء وترك إخوانه ممن شارف على الموت ووقع الفقهاء في حيرة من أمرهم فأفتى ابن لب بوجوب بقاء أهل الموضع وتمريض بعضهم البعض دون قدوم غيرهم على موضع الوباء[33].

وحتى الإمام الرصاع لم يسلم من هذه الحيرة، فذكر أنّه لو أفتى بجواز الفرار لخرج الأقوياء دون الضعفاء والعجزة ولم يبق هناك من يقوم بالمرضى، والتمريض واجب

على المسلمين، وحتى الذين فرّوا فلا يسلمون من احتمال إصابتهم وتمكّن الهواء الفاسد منهم[34].

ويُعاب على بعض الباحثين قولهم إنّ الفقهاء وقفوا موقفاً سلبياً من الوباء، وغلبت عليهم ذهنية الاستسلام للوباء دون مقاومته، والحقيقة دون ذلك، وما المراسلات بين الفقهاء واستحضارهم كتب الأطباء وجمعهم بين النقل والعقل وبين الطب التجريبي والروحاني إلا دليل على ذلك، وماذا يفعل الفقهاء إذا كان علم الطب في ذلك الزمن عاجز عن تشخيص الوباء فضلا عن إيجاد دواء له؟ كما أنّ زمن الوباء لا يمكن إلا الحديث عن إنقاذ ما يمكن إنقاذه لأنّ الوقت ليس وقت بحث علمي؛ لأنّ هذا الأخير يستغرق طويل مدة لفهم الظاهرة فضلاً عن معالجتها، وعلى الرغم من ذلك فقد كشف فقهاء غرناطة عن عقل طبي يجمع بين النص والعقل دون إلغاء أحدهما. والمتمعن لفتوى ابن لب يبصر بجلاء أنّ ما أفتى به يحمل في طياته عين الحكمة وهو الجمع بين الحجر الصحي بوجوب عدم خروج أهل الموضع مكان الوباء، ووجوب تكفل أهل الموضع بعضهم ببعض مع تقديم العجزة والضعفة والصغار.

هذا، وألّف الشقوري كتابه "تحقيق النبأ في أمر الوباء"، وفي ملخصه "النصيحة" تكلّم الشقوري عن أسباب انتشار الوباء وطرق الوقاية منه وعلاجه في أمر لم يسبق إليه، ويبدو أنّ هذا الوباء رئوي؛ حيث تكلم عن انتقال الوباء عن طريق الهواء، ووصف أعراض المرض من ضيق النفس ثم تكلم عن طرق العلاج من تبخير المنازل، وطريقة الرش للجدران وأسطح المنازل هذا فيما يتعلق بالمحيط، أما فيما يتعلق بالبدن فتكلم الشقوري عن الأغذية التي يجب أن يتناولها المريض والتي يجب أن يبتعد عنها. وفي العموم فإنّ الشقوري تكلم عن المناهج التي كان لها دورها في تطور الطب خاصة علم الأوبئة. كما يعود الفضل للشقوري وابن الخطيب من بعده في وضع نظرية أصيلة ساهمت في تطور الطب وهي العدوى بالملامسة (contamination par contact)[35].

لم يكن العلم والمنهج التجريبي ليتعارض أبدا مع نصوص الدّين، بل إنّ نصوص الدّين كانت تنادي بوجوب الحجر الصحي لكي لا ينتقل الوباء وينتشر وهو عين ما وصل

إليه الطب المبني على المنهج التجريبي، أما من أفتى؛ فقد وقف مع ظاهر النّص أو ربط ذلك بالمفهوم الوجودي الشرعي لفكرة السببية وهو ما عابه عليهم ابن الخطيب بقوله: "وفي هذا الباب وارتكاب اللجاج فيه ألحم في النّاس سيف الطاعون، وسلّط الله عليهم من بعض المفتين من اعترضهم بالفُتيا اعتراض الأزارقة من الخوارج للنّاس بالسيوف، فسالت على شبا أقلامهم من النّفوس والمبهج ما لا يعلمه إلا من كتب عليهم الفناء بسببه سبحانه، وإن كان بريء القصد من المَضرّة وقوفاً مع ظاهر لفظ الحديث"[36]. بل إنّ البعض رجع عن هذا التأويل "وقد وقف قوم من أهل الورع بالعدوة إلى النّاس مستقيلين مشهدين على أنفسهم بالرجوع عن الفتوى بذلك. . . "[37].

خاتمة

إذا كان اعتماد الطب على التجربة فقط مع استبعاد الحكمة(الفلسفة والمنطق)، التي يرى أحمد الطاهري أنّها امتدّت من الفتح إلى أواخر عهد الإمارة قد ساهمت في بقاء الطب أسير المعارف القديمة ومنغلقاً في إطار عشائري متوارث ومرتبطاً بخدمة البلاط والأمراء والمتنفذين، وأنّ الحجر على الفلسفة والمنطق كان له الأثر في تلاشي الصبغة العلمية والتجريبية للطب وخضوعه أكثر للتمويه والشعوذة[38]. فإنّ كتاب ابن الخطيب المسمى "مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل" قد اعتمد المنطق والحكمة التي أوصلته إلى ما وصل إليه من القول بالعدوى، ومن بينها العدوى بالملامسة (contamination par contact).

ومن وجهة نظر إبستمولوجية فإنّ المبادئ التي اعتمدها لسان الدّين ابن الخطيب وإن كان البعض مختلفاً فيه بين الفلاسفة في إفادته اليقين أم لا؛ مثل الاستقراء، إلا أنّ الجميع يتّفق على أنّه يبقى الوسيلة الأولى التي ننطلق منها في إثبات الحقائق المعرفية.

كما أنّ الحدس التجريبي كان له دوره في معرفة حركة المرض في الجسم البشري ومعرفة الجهاز المناعي لدى الإنسان؛ انطلاقاً من مقدّمات علم التشريح وملاحظة الأعراض التي كانت تظهر على جسد المريض.

واعتماد ابن الخطيب على مبدأ السببية لتفسير الظواهر الجزئية في علم الطّب واستبعاده لمناقشة المبدأ من الناحية الأنطولوجية على اعتبار أنّ ذلك ليس من وظائف هذا العلم سمح بتطوّر ملحوظ فيما يتعلق بعلم الأوبئة وهو القول بالعدوى بالمباشرة والملامسة، وهو أمر له دوره في حماية عدد كبير ممن لم يصبهم المرض بعد مع إمكانية عزل المناطق المتضرّرة والحيلولة دون انتشاره في أماكن أخرى.

هذا، وقد أزال لسان الدّين بن الخطيب بفضل إحاطته بعلوم عصره المتنوعة ومعرفته الفقهية والفلسفية والطبية وجمعه بين هذه العلوم شُبهة التعارض بين النصوص الشرعية، وبين ما قرّره المنهج التجريبي ومبادئ البرهان في القول بالعدوى في توفيق رائع بين النص والواقع.

ويجدر القول من ناحية أخرى إنّ الطّب باعتماده على المنطق الصوري فقط المبني على تصوّر المحمولات بقي حبيس المفهوم الثابت للشيء، وكذا عدم قدرته على معرفة صحة القضايا التركيبية، وإن وصل إلى تفسير بعض الظواهر إلا أنّه من الناحية الإكلينيكية لم يتقدّم تقدّماً ملحوظاً.

الهوامش والمراجع

(1) ابن الخطيب، محمد بن عبد الله السلماني: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق: محمد عبد الله عنان، ج04، ط2، القاهرة: مكتبة الخانجي، ص439؛ المقري، أحمد بن محمد: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: إحسان عباس، د. ط، ج8، بيروت: دار صادر، ص07وما بعدها.

(2) الإحاطة، ج04، ص: 457 459-؛ نفح الطيب، ج05، ص605-603؛ التنبكتي، أحمد بابا: **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط1، ج2، ليبيا، ص44.

(3) الإحاطة، ج04، ص459.

(4) نفح الطيب، ج05، ص497.

(5) الإحاطة، ج04، ص 390 و 391.

(6) نيل الابتهاج، ص 446.

(7) الإحاطة، ج04، ص 459.

(8) الإحاطة، ج04، ص 459 462-.

(9) ابن الخطيب، محمد بن عبد الله السلماني: **مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل**، تحقيق: حياة قارة، ط1، الرباط: دار الأمان، 2015، ص65.

(10) مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل، ص65.

(11) ابن سينا: **عيون الحكمة**، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، ط2، بيروت: دار القلم، 1980، ص18.

(12) مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل، ص72.

(13) شاكر، محمد: **الإيضاح لمتن إيساغوجي**، ط2، مصر: مطبعة النهضة، 1926، ص80 - 83.

(14) مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل، ص70.

(15) مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل، ص65.

(16) ابن رشد: **تهافت التهافت**، تحقيق: سليمان دنيا، ج02، ط2، مصر: دار المعارف، 1967، ص787.

(17) انظر مثلاً، ص68، 71.

(18) الغزالي، أبو حامد: **مقاصد الفلاسفة**، تحقيق: محمود دبيجو، ،ج1، دمشق: مطبعة الصباح، 2000، ص57.

(19) مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل، ص73.

(20) عبد القادر، ماهر: **الاستقراء العلمي في الدراسات الغربية والعربية**، د.ط، مصر: دار المعرفة الجامعية، 1998، ص155.

(21) مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل، ص73و74.

(22) مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل، ص75.

(23) الاستقراء والمنهج العلمي، ص33.

(24) مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل، ص81.

(25) جيليز، دونالد: **فلسفة العلم في القرن العشرين**، ترجمة ودراسة: حسين علي، ط1، لبنان: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2009، ص104.

(26) فلسفة العلم في القرن العشرين، ص71.

(27) مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل، ص80.

(28) مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل، ص71.

(29) زكريا، فؤاد: **نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان**، ط1، الإسكندرية: دار الوفاء للطباعة والنشر، 2005، ص18.

(30) الونشريسي، أحمد بن يحيي: **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، إخراج: جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، ج11، د.ط، الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص352 - 358.

(31) مقنعة السائل عن المرض الهائل، ص73و74.

(32) العبدري، محمد بن يوسف: **الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية**، تحقيق: محمد حسن، ط1، بيروت: المدار الإسلامي، 2007، ص89و90.

(33) المعيار، ج11، ص358 - 360.

(34) الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية، ص154.

(35) Rachel Arié. Etudes sur la civilisation de l'Espagne musulmane P67

(36) مقنعة السائل عن المرض الهائل، ص74.

(37) مقنعة السائل عن المرض الهائل، ص75.

(38) الطاهري، أحمد: "الطب بالأندلس بين الحكمة والتجريب"، **منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، جامعة عبد الملك السعدي، 1993، ص367 - 407.

المجلة العربية للعلوم الإنسانية

فصلية علمية محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

- بحوث باللغة العربية
- بحوث باللغة الإنجليزية
- بحوث باللغة الفرنسية
- مناقشات وندوات
- عروض الكتب الجديدة

مجلس النشر العلمي

رئيس التحرير

أ.د/ عبد الهادي ناصر العجمي

ص.ب: 26585 الصفاة 13126 الكويت- هاتف: 24817689(965)- 24815453(965) فاكس: 24812514 (965)

P.O. Box 26585 Safat,13126 Kuwait - Tel.:(965) 24817689 - (965) 24815453 - Fax: (965) 24812514

Email: ajh@ku.edu.kw - http:// www.pubcouncil.kuniv.edu.kw/ajh